مجموعة القصص الدينية

باشراف محمّد أحمد برانق



١٢

زمزم

دار المعارف بمصر

مجموعة القصص الدينية

(١٢)

بإشراف
محمد أحمد برانق

زمزم

الطبعة الحادية عشرة

دار المعارف

١

زَمْزَمُ !! اسْمٌ جَمِيلٌ، حُلْوُ اللَّفْظِ، مُوسِيقِيُّ النَّغَمِ ؛ فَمَا زَمْزَمُ؟
زَمْزَمُ بِئْرٌ عَذْبَةُ الْمَاءِ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ ، بِأَرْضِ الْحِجَازِ ، بِمَدِينَةِ مَكَّةَ ، بِجِوَارِ الْكَعْبَةِ بَيْتِ اللهِ الْحَرَامِ ؛ يَشْرَبُ مِنْ مَائِهَا الْحُلْوِ الْبَارِدِ النَّمِيرِ كُلُّ مَنْ حَجَّ إِلَى بَيْتِ اللهِ . وَيَبْتَرِدُ مِنْهَا كُلُّ مَنْ طَافَ بِكَعْبَةِ الْمُسْلِمِينَ الْمُؤْمِنِينَ ! ! فَهَلْ زَمْزَمُ بِئْرٌ كَسَائِرِ الْآبَارِ الَّتِي تَنْتَشِرُ بِأَرْضِ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ ؟أَوْ : هَلْ هِيَ مِثْلُ بَقِيَّةِ الآبَارِ الَّتِي نَبَعَتْ أَوْ حُفِرَتْ بِأَرْضِ الْحِجَازِ ؟لَا ! فَزَمْزَمُ لَهَا قِصَّةٌ وَلَهَا أَقَاصِيصُ دَوَّنَهَا الْمُفَسِّرُونَ ، وَتَحَدَّثَ بِهَا الرُّوَاةُ وَالْمُتَحَدِّثُونَ ، فَمَا هِيَ قِصَّتُهَا ؟ وَمَا هِيَ أَقَاصِيصُهَا ؟

كَانَ مَكَانُ مَكَّةَ قَدِيمًا وَادِيًا غَيْرَ ذِي زَرْعٍ ، أَرْضًا قَفْرًا قَحْلَاءَ مُجْدِبَةً تُحِيطُ بِهَا الْجِبَالُ مِنْ كُلِّ نَاحِيَةٍ ، وَتَتَوَسَّطُهَا رَبْوَةٌ صَغِيرَةٌ قَلِيلَةُ الِارْتِفَاعِ . وَإِلَى جِوَارِ هٰذِهِ الرَّبْوَةِ نَزَلَ ذَاتَ يَوْمٍ رَجُلٌ شَيْخٌ ، وَمَعَهُ امْرَأَةٌ شَابَّةٌ ، تَحْمِلُ طِفْلًا

رَضِيعاً . وَأَقَامَ الشَّيْخُ لِلْمَرْأَةِ وَالطِّفْلِ عَرِيشاً يَأْوِيَانِ إِلَيْهِ، وَوَضَعَ لَهُمَا فِيهِ مَا كَانَ يَحْمِلُ فِي جِرَابِهِ مِنْ طَعَامٍ وَشَرَابٍ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى الْمَرْأَةِ وَالطِّفْلِ يُوَدِّعُهُمَا عِنْدَ تَأَهُّبِهِ لِلانْصِرَافِ.

وَدَهِشَتِ الْمَرْأَةُ لِذَلِكَ. وَتَعَلَّقَتْ بِالرَّجُلِ وَدُمُوعُهَا تَسِيلُ عَلَى خَدَّيْهَا، وَهِيَ تَقُولُ :

أَتَتْرُكُنَا فِي هٰذَا الْمَكَانِ الْمُقْفِرِ الْمُوحِشِ يَا إِبْرَاهِيمُ ؟ !

قَالَ إِبْرَاهِيمُ : نَعَمْ يَا هَاجَرُ !

وَأَدْرَكَتْ هَاجَرُ أَنَّ إِبْرَاهِيمَ مَا أَقْدَمَ عَلَى هٰذَا إِلَّا بِأَمْرٍ مِنْ رَبِّهِ، وَمَا اتَّبَعَ مَا اتَّبَعَ إِلَّا بِوَحْيٍ مِنَ اللهِ . فَسَأَلَتْهُ : أَأَمَرَكَ رَبُّكَ أَنْ تَتْرُكَنَا هُنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ؟

أَجَابَ : نَعَمْ ؛ وَهُنَا سَيَأْمُرُنِي رَبِّي أَنْ أَبْنِيَ لَهُ بَيْتَهُ الْمُحَرَّمَ.

فَدَبَّتْ فِي نَفْسِ هَاجَرَ الطُّمَأْنِينَةُ ، وَسَرَتْ إِلَى رُوحِهَا السَّكِينَةُ . وَقَالَتْ : إِذَنْ ؛ تَوَكَّلْ عَلَى اللهِ ، فَقَدْ وَكَلْتَنَا إِلَى مَنْ لَا يَضِيعُ عِنْدَهُ الرَّجَاءُ .

وَوَدَّعَ إِبْرَاهِيمُ زَوْجَتَهُ هَاجَرَ، وَقَبَّلَ وَلَدَهُ الصَّغِيرَ إِسْمَاعِيلَ،

ثُمَّ تَرَكَهُمَا وَانْصَرَفَ . فَلَمَّا صَارَ عَلَى مَرْمَى النَّظَرِ مِنْهُمَا رَفَعَ رَأْسَهُ إِلَى السَّمَاءِ وَابْتَهَلَ إِلَى اللهِ قَائِلاً :

رَبَّنَا ؛ إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ ، رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ ، فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ ، وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ .

وَسَارَ إِبْرَاهِيمُ عَائِدًا مِنْ حَيْثُ جَاءَ هُوَ وَهَاجَرُ وَابْنُهُمَا إِسْمَاعِيلُ ، وَقَدْ خَلَّفَ مِنْ وَرَائِهِ زَوْجَتَهُ وَوَلَدَهُ فِي عَرِيشٍ بِجِوَارِ رَبْوَةٍ بِبَطْنِ وَادٍ تَحُفُّ بِهِ الْجِبَالُ ! وَحَمَلَتْ هَاجَرُ طِفْلَهَا ، وَلَجَأَتْ إِلَى الْخَيْمَةِ الَّتِي أَقَامَهَا لَهُمَا زَوْجُهَا ، وَجَلَسَتْ تَنْظُرُ مَا تَأْتِيهَا بِهِ الْأَيَّامُ . وَمَرَّتِ الْأَيَّامُ وَهَاجَرُ فِي وَحْدَتِهَا مَعَ طِفْلِهَا ، لَا يُقَوِّيهَا عَلَى احْتِمَالِ تِلْكَ الْوَحْدَةِ غَيْرُ إِيمَانِهَا بِإِبْرَاهِيمَ وَبِرَبِّ إِبْرَاهِيمَ ، وَيَقِينِهَا أَنَّ اللهَ لَنْ يَنْسَاهَا وَلَنْ يَنْبِذَهَا مِنْ رَحْمَتِهِ .

وَسَرَحَتْ هَاجَرُ بِأَفْكَارِهَا إِلَى يَوْمٍ بَعِيدٍ ! إِلَى يَوْمٍ كَانَتْ فِيهِ أَقْرَبَ إِلَى طِفْلَةٍ حَدَثَةٍ مِنْهَا إِلَى فَتَاةٍ مُقْبِلَةٍ عَلَى أَوَّلِ سِنِي الشَّبَابِ . إِلَى يَوْمٍ كَانَتْ تَجْلِسُ فِيهِ مَعَ لِدَاتِهَا مِنْ جَوَارِي

قَصْرِ فِرْعَوْنِ مِصْرَ يَتَحَدَّثْنَ وَيَسْمُرْنَ ، وَتَعْرِضُ كُلٌّ مِنْهُنَّ عَلَى صُوَيْحِبَاتِهَا مَا فَعَلَتْ فِي يَوْمِهَا مِنْ أَفْعَالٍ ، وَمَا أَتَتْ مِنْ أَعْمَالٍ . ثُمَّ تَتَخَيَّلُ كَبِيرَةَ وَصِيفَاتِ الْقَصْرِ وَقَدْ أَتَتْ إِلَيْهَا ، وَأَخَذَتْ بِيَدِهَا تَقُودُهَا إِلَى الْخَارِجِ ، فَتَسْتَفْهِمُ عَمَّا تَبْغِي مِنْهَا ، فَتَقُولُ لَهَا الْوَصِيفَةُ : لَقَدْ وَقَعَ عَلَيْكِ الِاخْتِيَارُ لِتَكُونِي ضِمْنَ هَدِيَّةٍ تُهْدَى إِلَى سَيِّدَةٍ كَرِيمَةٍ صَالِحَةٍ حَظِيَتْ بِتَقْدِيرِ سَيِّدِنَا فِرْعَوْنَ وَرِضَاهُ . وَتَسْرَحُ الْأَفْكَارُ بِهَاجَرَ إِلَى طَرِيقٍ صَحْرَاوِيٍّ طَوِيلٍ ، تَقْطَعُهُ عَلَى ظُهُورِ الْإِبِلِ مَعَ سَيِّدَتِهَا الْجَدِيدَةِ الْجَمِيلَةِ ، وَزَوْجِ سَيِّدَتِهَا التَّقِيِّ الطَّيِّبِ الصَّالِحِ ، الَّذِي لَا يَكُفُّ لِسَانُهُ عَنْ ذِكْرِ اللهِ ، وَلَا يَنِي عَنْ دَعْوَةِ كُلِّ عَابِرِ سَبِيلٍ إِلَى طَعَامِهِ وَالنُّزُولِ بِضِيَافَتِهِ .

ثُمَّ تَرَى نَفْسَهَا وَقَدْ شَبَّتْ وَكَبِرَتْ مَعَ سَيِّدَتِهَا سَارَةَ وَزَوْجِ سَيِّدَتِهَا إِبْرَاهِيمَ الَّذِي كَانَتْ قَدْ عَرَفَتْ أَنَّهُ صَفِيٌّ لِلَّهِ ، وَنَبِيٌّ لَهُ ، يَعْمَلُ بِوَحْيِهِ ، وَيَسِيرُ بِهُدَاهُ ، وَيَدْعُو النَّاسَ إِلَى عَدَمِ الشِّرْكِ بِاللهِ ، وَتَرْكِ عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ . وَقَدْ سَكَنَتْ وَإِيَّاهُمْ

فِي دَارِ بَرِّيَّةِ فِلَسْطِينَ ، وَآمَنَتْ هِيَ بِإِبْرَاهِيمَ ، وَبِرَبِّ إِبْرَاهِيمَ ، وَاتَّبَعَتْ تَعَالِيمَهُ وَتَعَالِيمَ زَوْجَتِهِ ، وَأَخْلَصَتْ لَهُمَا فِي الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ ، حَتَّى حَظِيَتْ بِرِضَا سَيِّدَتِهَا ، وَنَالَتْ حُبَّهَا وَعَطْفَهَا ، وَفَتَحَتْ لَهَا قَلْبَهَا ، وَأَطْلَعَتْهَا عَلَى مَكْنُونِ صَدْرِهَا ، حَتَّى لَقَدْ أَخْبَرَتْهَا أَنَّهَا عَاقِرٌ لَمْ تَلِدْ . وَتَوَدُّ أَنْ يَكُونَ لِإِبْرَاهِيمَ وَلَدٌ تَقَرُّ بِهِ عَيْنُهُ وَعَيْنُهَا . ثُمَّ كَيْفَ أَعْلَمَتْهَا أَنَّهَا سَتَهَبُهَا لِإِبْرَاهِيمَ لِتَكُونَ لَهُ الزَّوْجَةَ الَّتِي تَأْتِيهِ بِالْوَلَدِ الْحَبِيبِ .

وَتَسْتَمِرُّ الْأَفْكَارُ تَسْبَحُ أَمَامَ مُخَيِّلَةِ هَاجَرَ ، وَهِيَ بِخَيْمَتِهَا الْمُنْعَزِلَةِ عَنْ كُلِّ أَسْبَابِ الْعُمْرَانِ ، وَطِفْلُهَا بِحِجْرِهَا تَرْبِتُ لَهُ ظَهْرَهُ بِحَنَانٍ كَيْ يَنَامَ . فَتَرَى كَيْفَ آلَتْ هِيَ مِنْ سَارَةَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ ، وَكَيْفَ صَارَتْ جَارِيَةً لَهُ وَلِزَوْجِهِ ، ثُمَّ كَيْفَ تَلَقَّتْ سَارَةُ وَإِبْرَاهِيمُ بِالْفَرَحِ وَالسُّرُورِ نَبَأَ حَمْلِهَا وَالْبُشْرَى بِاقْتِرَابِ مَجِيئِهَا بِمَوْلُودٍ تَقَرُّ بِهِ أَعْيُنُهُمَا . وَغَامَتْ أَمَامَ مُخَيِّلَةِ هَاجَرَ الْأَفْكَارُ . ثُمَّ تَسَاقَطَتْ عَلَى وَجْنَتَيْهَا دَمْعَتَانِ انْحَدَرَتَا مِنْ عَيْنَيْهَا فَتَلَقَّتْهُمَا بِطَرَفِ رِدَائِهَا قَبْلَ أَنْ تَسْقُطَا عَلَى يَدِ طِفْلِهَا الرَّاقِدِ

بِحِجْرِهَا تَعْبَثُ يَدُهُ بِعُنُقِهَا وَصَدْرِهَا .

لَقَدْ تَذَكَّرَتْ هَاجَرُ حِينَذَاكَ كَيْفَ تَغَيَّرَ عَطْفُ سَارَةَ عَلَيْهَا إِلَى فُتُورٍ وَعَدَمِ اهْتِمَامٍ ! ! وَكَيْفَ تَغَيَّرَ حُبُّهَا لَهَا إِلَى زُهْدٍ فِيهَا ! ! ثُمَّ كَيْفَ تَلَقَّى إِبْرَاهِيمُ نَبَأَ وِلَادَةِ ابْنِهِ إِسْمَاعِيلَ ! ! وَكَيْفَ قَابَلَتْ سَارَةُ ذَٰلِكَ بِالسُّهُومِ وَالْوُجُومِ ! ! وَأَدْرَكَتْ هَاجَرُ أَنَّ هٰذِهِ السَّيِّدَةَ الطَّيِّبَةَ الَّتِي أَحَبَّتْهَا وَعَطَفَتْ عَلَيْهَا مِنْ قَبْلُ قَدْ دَخَلَتْ قَلْبَهَا الْغَيْرَةُ الَّتِي جُبِلَتْ عَلَيْهَا الْمَرْأَةُ دَائِماً . وَأَغْضَبَهَا مَا نَالَتْهُ هِيَ وَابْنُهَا مِنْ إِعْزَازِ إِبْرَاهِيمَ لَهُمَا وَعَطْفِهِ عَلَيْهِما .

إِذَنْ ؛ لَقَدْ غَارَتْ سَارَةُ مِنْ هَاجَرَ إِذْ أَتَتْ لِزَوْجِهَا إِبْرَاهِيمَ بِمَوْلُودٍ لَمْ يَهَبْ لَهَا اللهُ مِثْلَهُ ، وَلَمْ تَسْتَطِعْ أَنْ تُخْفِيَ غَضَبَهَا أَوْ تَسْتُرَ غَيْرَتَهَا ! وَسَبَحَتِ الأَفْكَارُ أَمَامَ هَاجَرَ ، فَتَذَكَّرَتْ كَيْفَ كَانَتْ تَعْمَلُ عَلَى الِابْتِعَادِ بِطِفْلِهَا عَنْ وَجْهِ سَارَةَ ، وَكَيْفَ كَانَتْ تَخْرُجُ فَتَعْتَكِفُ بِهِ بَعِيداً عَنِ الدَّارِ بَيْنَ الآكَامِ وَالغِيَاضِ ! ثُمَّ كَيْفَ كَانَتْ تَتَمَنْطَقُ بِالمَنَاطِقِ ذَاتِ الذُّيُولِ الطَّوِيلَةِ كَيْ تُعَفِّيَ بِهَا عَلَى آثَارِ أَقْدَامِهَا حَتَّى لَا تَعْرِفَ

سَارَةُ إِلَى أَيِّ وِجْهَةٍ اتَّجَهَتْ ، وَلَا إِلَى أَيِّ مَكَانٍ قَصَدَتْ ! !

وَلٰكِنَّ هٰذَا الِابْتِعَادَ وَهٰذَا الِاعْتِكَافَ لَمْ يَكْفِ سَارَةَ وَلَمْ يُرْضِهَا ، فَطَلَبَتْ مِنْ زَوْجِهَا أَنْ يُبَاعِدَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ هَاجَرَ وَابْنِهَا . وَاتَّخَذَ إِبْرَاهِيمُ لِهَاجَرَ وَابْنِهَا سَكَنًا بَعِيدًا عَنْ سَكَنِ سَارَةَ ، يَزُورُهُمَا فِيهِ بَيْنَ حِينٍ وَحِينٍ .

وَلٰكِنَّ سَارَةَ لَمْ تَسْتَطِعْ صَبْرًا عَلَى ذٰلِكَ أَيْضًا ، فَطَلَبَتْ مِنْ زَوْجِهَا أَنْ يُسْكِنَ هَاجَرَ بَلَدًا بَعِيدًا عَنْ بَلَدِهَا !

فَخَرَجَ بِهَا إِبْرَاهِيمُ إِلَى هٰذَا الْمَكَانِ الْبَعِيدِ عَنِ الْعُمْرَانِ ، ثُمَّ عَادَ إِلَى سَارَةَ الَّتِي صَارَتْ تَبْعُدُ عَنْهَا مَسِيرَةَ أَيَّامٍ وَلَيَالٍ ، وَتَفْصِلُ بَيْنَهُمَا الْفَيَافِي وَالْقِفَارُ . وَجَرَتْ عَلَى خَدَّيْ هَاجَرَ عِنْدَئِذٍ دَمْعَتَانِ، سَارَعَتْ فَتَلَقَّتْهُمَا بِطَرَفِ رِدَائِهَا قَبْلَ أَنْ تَسْقُطَا عَلَى يَدِ طِفْلِهَا الَّتِي سَكَنَتْ عَلَى صَدْرِهَا عَلَامَةً لِلنَّوْمِ .

وَرَفَعَتْ هَاجَرُ وَجْهَهَا إِلَى رَبِّهَا تَبْتَهِلُ إِلَيْهِ :

رَبِّ ؛ لَقَدْ وَكَلْنَا إِبْرَاهِيمُ إِلَيْكَ ، وَعِنْدَكَ لَا يَضِيعُ الرَّجَاءُ .

٢

وَمَرَّتْ عَلَى هَاجَرَ أَيَّامٌ أُخَرُ، نَفِدَ فِيهَا مَا كَانَ لَدَيْهَا مِنْ مَاءٍ.

رَبِّ؛ مَاذَا أَفْعَلُ ؟!

بِهٰذَا سَأَلَتْ هَاجَرُ رَبَّهَا، وَخَرَجَتْ مِنْ خَيْمَتِهَا حَيْثُ كَانَ يَرْقُدُ طِفْلُهَا يَتَلَوَّى عَطَشًا وَظَمَأً؛ تَنْظُرُ وَتَسْتَشْرِفُ فَوْقَ قِمَمِ الْجِبَالِ الْمُحِيطَةِ بِهَا، لَعَلَّهَا تُبْصِرُ مَاءً، أَوْ تُشَاهِدُ شَخْصًا.

لَقَدْ سَمِعَتْ إِبْرَاهِيمَ حِينَ أَتَى بِهَا إِلَى هٰذَا الْمَكَانِ يَقُولُ: هُنَا مُلْتَقَى الْقَوَافِلِ الْآتِيَةِ مِنَ الشَّامِ بِالْوَافِدَةِ مِنَ الْيَمَنِ.

وَلٰكِنْ! كَمْ مَضَى عَلَيْهَا مِنَ الْوَقْتِ دُونَ أَنْ يَمُرَّ بِطَرِيقِهَا أَحَدٌ ؟! وَكَمِ انْقَضَى عَلَيْهَا مِنَ الْأَيَّامِ دُونَ أَنْ تَفِدَ عَلَيْهَا قَافِلَةٌ ؟!

وَصَعِدَتْ هَاجَرُ جَبَلَ الصَّفَا تَتَشَوَّفُ وَتَسْتَشْرِفُ، وَلٰكِنَّهَا لَمْ تَرَ مَاءً، وَلَمْ تُبْصِرْ إِنْسَانًا؛ فَهَبَطَتْ وَسَعَتْ حَتَّى صَعِدَتْ جَبَلَ الْمَرْوَةِ، وَاسْتَشْرَفَتْ، وَلٰكِنَّهَا لَمْ تَجِدْ

مَا تَبْغِي ، وَعَادَتْ تَسْتَنْجِدُ بِرَبِّهَا : رَبَّاهُ ! مَاذَا أَفْعَلُ ؟ !

وَطَرَقَ أُذُنَ هَاجَرَ شِبْهُ صَوْتٍ صَادِرٍ مِنْ خَلْفِهَا ، فَقَالَتْ لِنَفْسِهَا : صَهْ ! ثُمَّ عَادَتْ تُهَرْوِلُ إِلَى الصَّفَا تَسْتَكْشِفُ خَبَرَهُ ، وَلَٰكِنَّهَا لَمْ تَجِدْ أَحَدًا .

وَطَرَقَ الصَّوْتُ أُذُنَهَا ثَانِيَةً مِنَ النَّاحِيَةِ الأُخْرَى ، فَرَجَعَتْ إِلَى الْمَرْوَةِ ، وَهَٰكَذَا ظَلَّتْ هَاجَرُ فِي هَرْوَلَتِهَا بَيْنَ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ سَبْعَ مَرَّاتٍ دُونَ أَنْ تَرَى مَصْدَرًا لِلصَّوْتِ ، أَوْ تَهْتَدِيَ إِلَى مَنْبَعٍ لِلْمَاءِ .

وَعَادَتْ هَاجَرُ إِلَى وَلَدِهَا بِعَيْنٍ دَامِعَةٍ ، وَقَلْبٍ كَسِيرٍ ، تَنْظُرُ مَا حَلَّ بِهِ ، وَهِيَ تَظُنُّ أَنَّهُ قَدْ مَاتَ ، وَفَارَقَ الْحَيَاةَ .

وَأَشْرَفَتْ هَاجَرُ عَلَى إِسْمَاعِيلَ وَتَطَلَّعَتْ إِلَيْهِ : يَا لَلْعَجَبِ !! هٰذَا مَا تَمْتَمَتْ بِهِ شَفَتَا هَاجَرَ وَهِيَ وَاقِفَةٌ تَنْظُرُ إِلَى مَا بَيْنَ قَدَمَيْ وَلَدِهَا بِدَهْشَةٍ وَذُهُولٍ . فَمَا الَّذِي رَأَتْ هَاجَرُ ؟ وَمَا الَّذِي أَدْهَشَهَا وَأَذْهَلَهَا ؟ ! لَقَدْ رَأَتْ بَيْنَ قَدَمَيْ إِسْمَاعِيلَ — اللَّتَيْنِ كَانَ يَفْحَصُ بِهِمَا الْأَرْضَ — مَاءً يَنْبُعُ صَافِيًا جَمِيلًا حُلْوًا ..!!

وَأَكَبَّتْ هَاجَرُ عَلَى الْمَاءِ تَسْتَسْقِي وَتَسْقِي ابْنَهَا ، حَتَّى إِذَا مَا شَبِعَتْ وَشَبِعَ رِيًّا ، جَعَلَتْ تَحْبِسُ الْمَاءَ بِكَفَّيْهَا ، وَتَزُمُّهُ مِنْ هُنَا وَمِنْ هُنَا بِيَدَيْهَا ، وَتَحُوطُهُ بِالرِّمَالِ ، حَتَّى تَخْتَزِنَهُ بِقُرْبِهَا وَتَحْفَظَهُ بِآنِيَتِهَا ، خَوْفًا عَلَيْهِ مِنْ أَنْ يَنْسَابَ بَيْنَ الرِّمَالِ هَبَاءً ، وَيَتَبَدَّدَ دُونَ جَدْوَى . حِينَئِذٍ سَمِعَتْ هَاجَرُ صَوْتًا كَالَّذِي سَمِعَتْهُ مِنْ قَبْلُ ، وَهَاتِفًا يَهْتِفُ بِهَا ، أَنْ :

لَا تَخَافِي الظَّمَأَ ، فَإِنَّهَا عَيْنٌ عَذْبَةٌ لِشُرْبِ ضِيفَانِ اللهِ ، وَلَا تَخَافِي الضَّيْعَةَ ، فَهُنَا سَيَبْنِي خَلِيلُ اللهِ وَابْنُهُ بَيْتَ اللهِ .

وَأَدْرَكَتْ هَاجَرُ أَنَّ اللهَ لَمْ يَنْسَهَا ، وَلَمْ يَنْبِذْهَا مِنْ رَحْمَتِهِ ! وَعَرَفَتْ أَنَّ هٰذَا الْهَاتِفَ مَا هُوَ إِلَّا مَلَكٌ مِنْ مَلَائِكَتِهِ ، فَخَرَّتْ لِلّٰهِ سَاجِدَةً ، تَشْكُرُ لَهُ نِعْمَتَهُ عَلَيْهَا وَعَلَى وَلَدِهَا ، وَتَحْمَدُ لَهُ رَحْمَتَهُ بِهِمَا .

وَأَقَامَتْ هَاجَرُ بِخَيْمَتِهَا مَعَ ابْنِهَا آمِنَةً هَانِئَةً مُطْمَئِنَّةً ؛ بِجِوَارِ عَيْنِ مَاءٍ نَابِعَةٍ صَافِيَةٍ عَذْبَةٍ ، وَقَدْ عَرَفَتْ أَنَّ عَيْنَ اللهِ سَاهِرَةٌ عَلَيْهَا ، تَرْعَاهَا بِعِنَايَتِهَا ، وَتَكْلَؤُهَا بِرِعَايَتِهَا .

٣

كَانَتْ أَقْرَبَ قَبَائِلِ الْعَرَبِ إِلَى وَادِى مَكَّةَ قَبِيلَةٌ تُسَمَّى جُرْهُم، فَقَدْ كَانَتْ تَنْزِلُ بِأَعَالِى وَادِى مَكَّةَ عِنْدَ جَبَلِ قُعَيْقِعَانَ مُنْذُ أَنْ وَفَدَتْ مِنَ الْيَمَنِ كَغَيْرِهَا مِنَ الْقَبَائِلِ الَّتِى هَاجَرَتْ مِنْهُ، وَتَفَرَّقَتْ فِى شَتَّى أَنْحَاءِ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ، وَكَانَتْ جُرْهُمُ تَعْلَمُ كَمَا يَعْلَمُ غَيْرُهَا مِنَ الْقَبَائِلِ الْقَرِيبَةِ، وَكَمَا تَعْلَمُ الْقَوَافِلُ الْآتِيَةُ مِنَ الشَّامِ وَالْوَافِدَةُ مِنَ الْيَمَنِ — أَنَّ بَطْنَ وَادِى مَكَّةَ لَيْسَ بِهِ مَاءٌ وَلَيْسَ فِيهِ زَرْعٌ وَلَا ضَرْعٌ . . . وَلَكِنْ: مَا هٰذَا الطَّيْرُ الَّذِى يُحَلِّقُ فَوْقَ الْجَبَلِ؟! وَمَا الَّذِى أَتَى بِهِ إِلَى هَا هُنَا؟! هٰذَا مَا تَسَاءَلَ بِهِ نَفَرٌ مِنْ جُرْهُم كَانُوا يَمُرُّونَ بِالْقُرْبِ مِنْ وَادِى مَكَّةَ، فَشَاهَدُوا طَيْرًا يَحُومُ فَوْقَ جَبَلِ أَبِى قُبَيْسٍ الْمُشْرِفِ عَلَيْهِ، فَدَهِشُوا لِذٰلِكَ وَعَجِبُوا، فَمَا عَهِدُوا فِى الطَّيْرِ أَنْ يَحُومَ إِلَّا عَلَى مَاءٍ، وَمَا عَرَفُوا فِيهِ إِلَّا أَنَّهُ لَا يَتَجَمَّعُ إِلَّا عَلَى مَأْكَلٍ أَوْ مَشْرَبٍ .

وَلٰــكِنْ! أَيْنَ هٰذَا الْمَــكَانُ مِنَ الْمَاءِ ؟! وَأَيْنَ هُوَ مِنْ مَأْكَلِ الطُّيُورِ وَمَشْرَبِهَا ؟ ! وَدَفَعَ حُبُّ الِاسْتِطْلَاعِ جَمَاعَةَ جُرْهُم عَلَى إِرْسَالِ رَسُولَيْنِ مِنْهُمْ يَسْتَطْلِعَانِ لَهُمُ الْأَمْرَ، وَيَأْتِيَانِهِمْ بِالْخَبَرِ.

وَسَارَ الرَّسُولَانِ إِلَى بَطْنِ الْوَادِي ، وَ بِالْقُرْبِ مِنَ الرَّابِيَةِ الَّــتِي تَتَوَسَّطُهُ شَاهَدَا خَيْمَةً تَجْلِسُ بِبَابِهَا امْرَأَةٌ تَحْتَضِنُ طِفْلًا وَبِجِوَارِهِمَا عَيْنُ مَاءٍ صَافِيَةٌ، يَتَلَأْلَأُ مَاؤُهَا تَحْتَ أَشِعَّةِ الشَّمْسِ أَخَّاذًا بَرَّاقًا . وَيَنْسَابُ مِنْ حَوْلِهَا الْمَاءُ، فَتَبْدُو حَصْبَاؤُهَا لَامِعَةً ذَهَبِيَّةً ! وَوَقَفَ الرَّائِدَانِ مَدْهُوشَيْنِ مَبْهُوتَيْنِ مُسْتَعْجِبَيْنِ !

لَقَدْ طَالَمَا مَرَّا مِنْ هُنَا وَمَرَّتْ رِفْقَتُهُمْ ، فَمَا شَاهَدُوا نَاسًا ، وَمَا رَأَوْا مَاءً ! فَمَنْ هٰذِهِ الْمَرْأَةُ ؟! وَمَنْ حَفَرَ عَنْ هٰذَا الْمَاءِ ؟!

وَرَجَعَ الرَّائِدَانِ إِلَى قَبِيلَتِهِمَا بِالْخَبَرِ . وَسُرْعَانَ مَا كَانَ نَفَرٌ مِنْ ذَوِي الرَّأْيِ فِي الْقَبِيلَةِ فِي طَرِيقِهِمْ إِلَى مَــكَانِ إِسْمَاعِيلَ وَهَاجَرَ وَسَرَدَتْ هَاجَرُ عَلَى الْوَافِدِينَ إِلَيْهَا خَــبَرَهَا ، وَقَصَّتْ عَلَيْهِمْ قِصَّتَهَا . فَسَأَلُوهَا بَعْدَ أَنْ ذَهَبَ بَعْضُ مَا بِهِمْ مِنْ دَهْشَةٍ وَعَجَبٍ مِنْ أَثَرِ قِصَّتِهَا : هَلْ تَأْذَنِينَ لَنَا فِي أَنْ نُجَاوِرَكِ ؟

قَالَتْ: نَعَمْ؛ وَلٰكِنَّ الْمَاءَ مَائِى وَمَاءُ وَلَدِى.

قَالُوا: لَكِ ذٰلِكِ. ثُمَّ سَارُوا إِلَى أَهْلِهِمْ وَذَوِيهِمْ يُعْلِمُونَهُمْ خَبَرَ هٰذَا النَّبْعِ الْجَدِيدِ، وَيُرَغِّبُونَهُمْ فِى الْهِجْرَةِ مِنْ مَكَانِهِمْ، وَالانْتِقَالِ إِلَى جِوَارِهِ.

ثُمَّ أَتَتْ قَوَافِلُ مِنَ الشَّامِ وَمِنَ الْيَمَنِ، وَوَفَدَتْ أُخْرَى مِنْ نَجْدٍ وَمِنَ الْحِيرَةِ، وَرَأَوْا هٰذَا الْمَاءَ بِمَحَطَّتِهِمُ الَّتِى كَانُوا يَتَلاقَوْنَ بِهَا، فَفَرِحُوا وَحَطُّوا بِجِوَارِهِ يَتَزَوَّدُونَ مِنْهُ وَيَسْتَجِمُّونَ. وَيَأْخُذُونَ قِسْطًا مِنَ الرَّاحَةِ لَهُمْ وَلِدَوَابِّهِمْ.

وَهٰكَذَا جَلَبَ هٰذَا الْمَاءُ الَّذِى فَجَّرَهُ اللّٰهُ لِهَاجَرَ وَابْنِهَا النَّاسَ إِلَيْهِمَا، وَأَتَاهُمَا بِالقَوَافِلِ الَّتِى صَارَتْ تُزَوِّدُهُمَا تِبَاعًا فِى غُدُوِّهَا وَرَوَاحِهَا بِمَا يَحْتَاجَانِ إِلَيْهِ مِنْ مَأْكَلٍ وَمَلْبَسٍ، وَأَتَاهُمَا بِجِيرَانٍ أَخَذُوا يَتَوَافَدُونَ عَلَيْهِمَا مِنْ قَبِيلَةِ جُرْهُمٍ، فَمَلأُوا وَادِى مَكَّةَ أُنْسًا وَحَرَكَةً وَبَهْجَةً.

وَهٰكَذَا صَارَتْ مَكَّةُ مَأْهُولَةً مَسْكُونَةً، تَسْرَحُ بِأَرَاضِيهَا الدَّوَابُّ وَالْمَوَاشِى، وَتَنْمُو بِهَا الثَّمَرَاتُ، وَتُجْلَبُ إِلَيْهَا الْخَيْرَاتُ.

بسم الله الرحمن الرحيم

وإذ قال
إبراهيم رب اجعل هذا بلدا ءامنا وارزق أهله من الثمرات من ءامن
منهم بالله واليوم الآخر قال ومن كفر فأمتعه قليلا ثم أضطره إلى
عذاب النار وبئس المصير ﴿١٢٦﴾ وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت
وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم ﴿١٢٧﴾

صدق الله العظيم

وَأَتَى إِبْرَاهِيمُ بَعْدَ ذٰلِكَ يَرَى مَا فَعَلَهُ اللهُ بِزَوْجَتِهِ وَوَلَدِهِ . فَوَجَدَ أَنَّ اللهَ قَدْ حَقَّقَ لَهُمَا دَعْوَتَهُ حِينَ دَعَاهُ :

فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ ، وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ .

وَلَمْ تُعَمَّرْ هَاجَرُ حَتَّى تَرَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ يَبْنِيَانِ الْكَعْبَةَ بَيْتَ اللهِ ، كَمَا بَشَّرَهَا بِذٰلِكَ الْمَلَكُ جِبْرِيلُ . بَلْ مَاتَتْ وَوَلَدُهَا إِذْ ذَاكَ غُلَامٌ حَدَثٌ قَدْ أَقْبَلَ عَلَى مَرْحَلَةِ الشَّبَابِ ، فَزَوَّجَهُ جِيرَانُهُ مِنْ جُرْهُمَ فَتَاةً مِنْهُمْ ، تَسْهَرُ عَلَيْهِ وَتَرْعَى شُئُونَهُ

وَأَتَى إِبْرَاهِيمُ ، فَأَعْلَمَ وَلَدَهُ أَنَّ اللهَ قَدْ أَمَرَهُمَا بِبِنَاءِ بَيْتٍ لَهُ فَوْقَ الرَّابِيَةِ الصَّغِيرَةِ الَّتِي تَتَوَسَّطُ وَادِيَ مَكَّةَ ، فَلَبَّى إِسْمَاعِيلُ الدَّعْوَةَ ، وَبَنَى مَعَ أَبِيهِ الْكَعْبَةَ ، وَدَعَا إِبْرَاهِيمُ النَّاسَ إِلَى دِينِ اللهِ ، وَالْحَجِّ إِلَى بَيْتِ اللهِ . ثُمَّ وَكَلَ أَمْرَ الْبَيْتِ إِلَى وَلَدِهِ ، وَعَرَّفَهُ كَيْفَ يُعَلِّمُ النَّاسَ مَنَاسِكَ الْحَجِّ وَوَاجِبَاتِهِ وَفُرُوضَهُ كَمَا عَلَّمَهُ اللهُ . ثُمَّ عَادَ إِلَى بَرِّيَّةِ فِلَسْطِينَ .

وَرَعَى إِسْمَاعِيلُ بَيْتَ اللهِ ، ثُمَّ رَعَاهُ أَوْلَادُهُ وَأَخْوَالُهُمْ

الْجُرْهُمِيُّونَ مِنْ بَعْدِهِ، وَمَرَّتْ عَلَى ذٰلِكَ أَحقَابٌ طَوِيلَةٌ، وَأَجْيَالٌ مُتَتَابِعَةٌ؛ تَفَرَّقَ فِيهَا بِأَنحَاءِ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ مِنْ ذُرِّيَّةِ إِسْمَاعِيلَ مَنْ تَفَرَّقَ، وَبَقِيَ بِمَكَّةَ مِنْهُمْ مَنْ بَقِيَ؛ وَظَلَّ فِيهَا أَمْرُ مَكَّةَ لِلْجُرْهُمِيِّينَ. وَلٰكِنَّهُمْ كَانُوا قَدْ نَسُوا دِينَ اللهِ الَّذِى دَعَا إِلَيْهِ إِبْرَاهِيمُ، وَأَشْرَكُوا بِاللهِ، وَجَعَلُوا مِنْ بَيْتِهِ بَيْتًا لِلأَصْنَامِ، وَمَوْئِلًا لِلأَوْثَانِ، صَارَ يَحُجُّ إِلَيْهَا الْعَرَبُ مِنْ شَتَّى أَنحَاءِ الْجَزِيرَةِ، وَيُقَدِّمُونَ لَهَا الْقَرَابِينَ، وَيَنحَرُونَ لَهَا الذَّبَائِحَ، وَعَلَى هٰذَا صَارَ الْحَالُ فِى مَكَّةَ حَتَّى آلَ أَمْرُهَا إِلَى مُضَاضِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْحَارِثِ الْجُرْهُمِيِّ؛ وَفِى عَهْدِهِ زَادَ تَرَفُ أَهْلِ مَكَّةَ وَزَادَ انْحِلَالُ أَخْلَاقِهِمْ، وَعَمَّ فَسَادُهُمْ، رَغْمَ نُصْحِ مُضَاضِ بْنِ عَمْرٍو لَهُمْ؛ وَلِهٰذَا الانحِلَالِ أُهْمِلَ بَيْتُ اللهِ حَتَّى تَجَرَّأَ بَعْضُهُمْ عَلَى السَّرِقَةِ مِنَ الْهَدَايَا الَّتِى كَانَتْ تُهْدَى إِلَيْهِ وَتُوضَعُ بِدَاخِلِهِ. وَأُهْمِلَتْ زَمْزَمُ الَّتِى فَجَّرَهَا اللهُ لِإِسْمَاعِيلَ، وَالَّتِى كَانَتْ قَدْ حُفِرَتْ وَقُوِّضَتْ وَسُوِّرَتْ، وَصَارَتْ بِئْرًا. فَشَحَّ مَاؤُهَا وَغَاضَ!

ثُمَّ أَدَّى هٰذَا الْحَالُ أَيْضًا إِلَى طَمَعِ بَعْضِ الْقَبَائِلِ الْقَرِيبَةِ

مِنْ مَكَّةَ فِي أَنْ يَسْتَوْلُوا عَلَيْهَا وَيُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا اللَّاهِينَ عَنْهَا، الْغَافِلِينَ عَنْ صَالِحِهَا.

وَهٰكَذَا انْقَضَتْ قَبَائِلُ خُزَاعَةَ عَلَى الْجُرْهُمِيِّينَ تُحَارِبُهُمْ لِتَنْتَزِعَ مَكَّةَ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ، وَأَدْرَكَ مُضَاضٌ أَنَّ الْأَمْرَ قَدْ خَرَجَ عَنِ الْجُرْهُمِيِّينَ، وَأَنَّ مَكَّةَ قَدْ أَفْلَتَتْ مِنْ أَيْدِيهِمْ، وَأَنَّهُ لَا بُدَّ مِنْ خُرُوجِهِمْ مِنْهَا؛ فَأَتَى إِلَى بِئْرِ إِسْمَاعِيلَ، فَحَفَرَهَا وَأَعْمَقَ غَوْرَهَا، وَأَتَى بِهَدَايَا الْكَعْبَةِ وَوَضَعَهَا فِي الْبِئْرِ وَهَالَ عَلَى الْبِئْرِ الرِّمَالَ فَطَمَرَهَا، وَطَمَسَ مَعَالِمَهَا. وَكَانَ أَمَلُ مُضَاضٍ مِنْ وَرَاءِ ذٰلِكَ أَنْ يَعُودَ إِلَيْهِ أَمْرُ مَكَّةَ ثَانِيًا. فَيَسْتَخْرِجَ مِنَ الْبِئْرِ مَا طُمِرَ مِنَ الْهَدَايَا. وَبِذٰلِكَ يَكُونُ قَدْ حَفِظَهَا مِنْ أَيْدِي الْغَاصِبِينَ.

وَلٰكِنْ شَاءَ اللهُ أَلَّا يَعُودَ مُضَاضٌ إِلَى مَكَّةَ، وَأَلَّا يَعُودَ غَيْرُهُ مِنَ الْجُرْهُمِيِّينَ، فَقَدْ ظَلَّتْ خُزَاعَةُ تَتَوَارَثُ وِلَايَةَ مَكَّةَ إِلَى مَا بَعْدَ سَنَةِ أَرْبَعِمَائَةٍ مِنْ مِيلَادِ الْمَسِيحِ حَتَّى تَوَلَّى أَمْرَهَا قُصَيُّ ابْنُ كِلَابٍ مِنْ سُلَالَةِ إِسْمَاعِيلَ.

وَفِي عَهْدِ قُصَيٍّ نَالَتْ مَكَّةُ مِنَ الْمَدَنِيَّةِ مَا لَمْ تَنَلْهُ قَبْلَ

ذٰلِكَ، وَرَأَتْ مِنَ السَّكِينَةِ وَالْهُدُوءِ مَا لَمْ تَرَهُ فِي كُلِّ مَا مَرَّ بِهَا مِنْ أَجْيَالٍ. فَقَدْ أَمَرَ قُصَيٌّ أَهْلَ مَكَّةَ أَنْ يَبْنُوا لَهُمْ بُيُوتًا يَسْكُنُونَ فِيهَا بَدَلًا مِنَ الْعَرَائِشِ وَالْخِيَامِ، وَكَانُوا إِلَى ذٰلِكَ الْحِينِ يَهَابُونَ أَنْ يَبْنُوا بُيُوتًا إِلَى جِوَارِ بَيْتِ اللّٰهِ؛ وَابْتَدَأَ هُوَ فَبَنَى دَارًا لِلنَّدْوَةِ وَالِاجْتِمَاعِ يُبْرَمُ فِيهَا كُلُّ أَمْرٍ ذِي بَالٍ.

وَجَمَعَ قُصَيٌّ مَنَاصِبَ الْكَعْبَةِ فِي يَدِهِ، وَأَدَارَهَا بِحَزْمٍ وَحِكْمَةٍ. وَكَانَ مِنْ بَيْنِ هٰذِهِ الْمَنَاصِبِ مَنْصِبُ السِّقَايَةِ، وَهِيَ إِعْدَادُ الْمَاءِ وَنَبِيذِ التَّمْرِ وَغَيْرِهِ لِلْحُجَّاجِ فِي مَوَاسِمِ الْحَجِّ، وَجَلْبُ الْمَاءِ إِلَى الْكَعْبَةِ مِنَ الْآبَارِ الْبَعِيدَةِ الَّتِي احْتُفِرَتْ بِبَعْضِ نَوَاحِي مَكَّةَ؛ كَمَا أَنْشَأَ الرِّفَادَةَ وَهِيَ فَرْضٌ فَرَضَهُ قُصَيٌّ عَلَى قُرَيْشٍ تَدْفَعُهُ مِنْ أَمْوَالِهَا لِيُعَدَّ بِهِ طَعَامًا لِلْحَاجِّ الْفَقِيرِ.

ثُمَّ تَدَرَّجَ هٰذَانِ الْمَنْصِبَانِ: السِّقَايَةُ وَالرِّفَادَةُ، بَيْنَ أَبْنَاءِ قُصَيٍّ وَأَحْفَادِهِ، حَتَّى آلَا إِلَى عَبْدِ الْمُطَّلِبِ بْنِ هَاشِمِ بْنِ عَبْدِ مَنَافِ بْنِ قُصَيٍّ.

٤

وَكَانَ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ حِينَ تَوَلَّى هٰذَيْنِ الْمَنْصِبَيْنِ لَا وَلَدَ لَهُ إِلَّا الْحَارِثُ، فَجَهِدَ فِي نَقْلِ الْمَاءِ مِنْ أَطْرَافِ مَكَّةَ، وَبَلَغَ بِهِ الْجَهْدُ كُلَّ الْجَهْدِ فِي إِعْدَادِهِ لِلْحُجَّاجِ، وَالإِشْرَافِ عَلَى نَظَافَتِهِ.

وَتَمَنَّى عَبْدُ الْمُطَّلِبِ أَنْ لَوْ لَمْ تُطْمَسْ بِئْرُ إِسْمَاعِيلَ الَّتِي كَانَ لَا يَفْتَأُ يَتَدَاوَلُ ذِكْرَهَا الْعَرَبُ إِذَنْ — لَكَانَ قَدْ هَانَ عَلَيْهِ مَنْصِبُ السِّقَايَةِ وَسَهُلَ عَلَيْهِ أَمْرُهُ، وَشَغَلَ هٰذَا الْخَاطِرُ بَالَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، وَأَلَحَّ عَلَيْهِ التَّفْكِيرُ فِيهِ، حَتَّى لَقَدْ غَدَا عَلَيْهِ مِحْوَرُ تَفْكِيرِهِ نَهَارًا، وَبَاتَ عَلَيْهِ مَدَارُ أَحْلَامِهِ لَيْلًا.

وَبَيْنَمَا هُوَ نَائِمٌ ذَاتَ لَيْلَةٍ فِي الْحِجْرِ، عَلَى مَقْرَبَةٍ مِنَ الْكَعْبَةِ، هَتَفَ بِهِ هَاتِفٌ فِي نَوْمِهِ أَنْ: احْفِرْ طِيبَةَ!

فَقَالَ مُسْتَفْهِمًا الْهَاتِفَ: وَمَا طِيبَةُ ؟!!

فَانْصَرَفَ الْهَاتِفُ، وَاسْتَيْقَظَ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ.

وَفِي اللَّيْلَةِ التَّالِيَةِ نَامَ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ فِي مَوْضِعِهِ السَّابِقِ

فَهَتَفَ بِهِ الْهَاتِفُ : اِحْفِرْ بَرَّةَ .

فَقَالَ : وَمَا بَرَّةُ ؟ !!

فَانْصَرَفَ الْهَاتِفُ ، وَاسْتَيْقَظَ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ .

وَفِي اللَّيْلَةِ الثَّالِثَةِ هَتَفَ بِهِ الْهَاتِفُ : اِحْفِرِ الْمَضْنُونَةَ .

فَلَمَّا اسْتَفْهَمَ عَمَّا هِيَ الْمَضْنُونَة ، انْصَرَفَ الْهَاتِفُ عَنْهُ .

فَلَمَّا كَانَتِ اللَّيْلَةُ الرَّابِعَةَ جَاءَهُ الْهَاتِفُ يَهْتِفُ أَنِ :احْفِرْ زَمْزَمَ .

فَلَمَّا اسْتَفْهَمَ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ : وَمَا زَمْزَمُ ؟!!

عَرَّفَهُ الْهَاتِفُ مَا هِيَ ، وَدَلَّهُ عَلَى مَكَانِهَا !

وَأَصْبَحَ أَهْلُ مَكَّةَ مِنْ قُرَيْشٍ وَهُمْ يَرَوْنَ عَبْدَ الْمُطَّلِبِ وَوَلَدَهُ الْحَارِثَ وَقَدْ شَمَّرَا عَنْ سَوَاعِدِهِمَا يَحْفِرَانِ بَيْنَ صَنَمَيْ إِسَافَ وَنَائِلَةَ الْمُقَامَيْنِ فِي حِجْرِ الْكَعْبَةِ حَيْثُ كَانَتْ قُرَيْشٌ تَنْحَرُ عِنْدَهَا ذَبَائِحَهَا . وَسَأَلَتْ قُرَيْشٌ عَبْدَ الْمُطَّلِبِ مَدْهُوشَةً : مَا الَّذِي تَفْعَلُ يَا عَبْدَ الْمُطَّلِبِ ؟ !

أَجَابَ : أَحْفِرُ عَنْ بِئْرِ زَمْزَمَ لِيَسْتَقِيَ مِنْهَا الْحُجَّاجُ .

وَلَمْ يَقْتَنِعْ رِجَالُ قُرَيْشٍ بِهٰذَا الْقَوْلِ ، وَأَرَادُوا أَنْ يَمْنَعُوا

عَبْدَ المُطَّلِبِ مِنْ أَنْ يَحْفِرَ بَيْنَ صَنَمَيْهِمْ إِسَاف وَنَائِلَةَ وَهُمْ يَقُولُونَ : وَاللهِ لا نَتْرُكُكَ تَحْفِرُ بَيْنَ وَثَنَيْنَا هٰذَيْنِ اللَّذَيْنِ نَنْحَرُ بَيْنَهُمَا . وَلٰكِنَّ عَبْدَ المُطَّلِبِ لَمْ يَرْجِعْهُ عَنْ عَزْمِهِ تَهْدِيدُ قُرَيْشٍ وَمُعَارَضَتُهَا وَمُغَاضَبَتُهَا لَهُ ، بَلِ اسْتَمَرَّ يَحْفِرُ هُوَ ، وَابْنُهُ يَذُودُ عَنْهُ وَعَبْدُ المُطَّلِبِ يَقُولُ : فَوَاللهِ لَأَمْضِيَنَّ فِيمَا أُمِرْتُ بِهِ .

وَفَجْأَةً هَتَفَ عَبْدُ المُطَّلِبِ مُهَلِّلاً فَرِحاً ! وَأَسْرَعَ رِجَالُ قُرَيْشٍ يَلْتَفُّونَ مِنْ حَوْلِهِ يَنْظُرُونَ إِلَى مَا يَهْتِفُ مِنْ أَجْلِهِ ! وَمِنْ بَيْنِ الرِّمَالِ الَّتِي حَفَرَهَا عَبْدُ المُطَّلِبِ ، وَمِنْ بَيْنِ الْأَتْرِبَةِ الَّتِي اسْتَخْرَجَهَا مِنْ جَوْفِ الْأَرْضِ ، رَأَى رِجَالُ قُرَيْشٍ دَائِرَةً مِنَ الْأَحْجَارِ الْمُتَشَابِكَةِ الْمُتَلَاصِقَةِ ، يُنْبِئُ مَظْهَرُهَا عَلَى أَنَّهَا كَانَتْ لِفُوَّهَةِ بِئْرٍ ، فَتَصَايَحُوا يَقُولُونَ : إِنَّهَا بِئْرُ أَبِينَا إِسْمَاعِيلَ ! إِنَّ لَنَا فِي هٰذِهِ الْبِئْرِ حَقًا يَا عَبْدَ الْمُطَّلِبِ ، فَأَشْرِكْنَا فِيهَا مَعَكَ ! وَنَظَرَ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ إِلَيْهِمْ نَظْرَةَ الْمُنْتَصِرِ الظَّافِرِ وَقَالَ : مَا أَنَا بِفَاعِلٍ ، إِنَّ هٰذَا الْأَمْرَ قَدْ خُصِصْتُ بِهِ دُونَكُمْ ، وَأُعْطِيتُهُ مِنْ بَيْنِكُمْ .

وَأَسْخَطَ هٰذَا الْقَوْلُ رِجَالَ قُرَيْشٍ، فَأَقْبَلُوا عَلَى عَبْدِ الْمُطَّلِبِ يَلُومُونَهُ ، وَيُحَاجُّونَهُ فِي أَمْرِ الْبِئْرِ ، وَهُمْ يَقُولُونَ لَهُ : أَنْصِفْنَا، وَأَعْطِنَا حَقَّنَا فِي الْبِئْرِ ، فَإِنَّا غَيْرُ تَارِكِيكَ حَتَّى نُخَاصِمَكَ فِيهَا .

فَقَالَ : اِجْعَلُوا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ مَنْ شِئْتُمْ أُحَاكِمْكُمْ إِلَيْهِ .

قَالُوا : سَنَجْعَلُ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ كَاهِنَةَ بَنِي سَعْدٍ .

قَالَ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ : قَدْ قَبِلْتُ مَا تَخَيَّرْتُمْ حَكَمًا .

وَشَهِدَتْ صَحْرَاءُ الْحِجَازِ ذَاتَ يَوْمٍ قَافِلَةً مِنَ التُّجَّارِ تَسِيرُ نَحْوَ الشَّمَالِ ، وَفِي مَعِيَّتِهَا عَبْدُ الْمُطَّلِبِ ، وَجَمَاعَةٌ مُنْتَخَبَةٌ مِنَ الرِّجَالِ ، اخْتَارَتْهُمْ قُرَيْشٌ لِيَعْرِضُوا شَكْوَاهَا ضِدَّ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ عِنْدَ كَاهِنَةِ بَنِي سَعْدٍ الَّتِي تُقِيمُ بِإِحْدَى رَوَابِي الشَّامِ .

وَقَطَعَ الْمُسَافِرُونَ مَرْحَلَةً طَيِّبَةً مِنْ رِحْلَتِهِمْ هٰذِهِ ، ثُمَّ اكْتَشَفَ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ وَأَصْحَابُهُ مِنْ رِجَالِ قُرَيْشٍ أَنَّ مَاءَهُمُ الَّذِي تَزَوَّدُوا بِهِ لِرِحْلَتِهِمْ قَدْ نَفِدَ ، فَسَأَلُوا مُرَافِقِيهِمْ مِنْ تُجَّارِ الْقَافِلَةِ أَنْ يُشْرِكُوهُمْ فِي مَائِهِمْ ، وَلٰكِنَّ التُّجَّارَ اعْتَذَرُوا بِأَنَّ مَا بَقِيَ بِقِرَبِهِمْ مِنْ مَاءٍ لَا يَكَادُ يَكْفِي شَرَابَهُمْ حَتَّى يَصِلُوا إِلَى

عَنْ مَاءٍ يَتَزَوَّدُونَ مِنْهَا ، وَنَصَحُوا عَبْدَ الْمُطَّلِبِ وَإِخْوَانَهُ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْهُمْ ، وَيَلْجَأُوا إِلَى إِحْدَى الْقَبَائِلِ الْقَرِيبَةِ لِتُمِدَّهُمْ بِحَاجَتِهِمْ مِنَ الْمَاءِ ، ثُمَّ تَرَكُوهُمْ وَوَاصَلُوا سَيْرَهُمْ .

وَغُمَّ عَلَى جَمَاعَةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ الطَّرِيقُ ، وَاخْتَلَطَتْ عَلَيْهِمُ السُّبُلُ ، وَالْتَبَسَتْ أَمَامَهُمُ الْمَسَالِكُ ؛ فَأَيْقَنُوا أَنَّ مَصِيرَهُمْ هُوَ الْمَوْتُ عَطَشاً فِي هٰذِهِ الصَّحْرَاءِ الْوَاسِعَةِ ، وَفَوْقَ رِمَالِهَا السَّاخِنَةِ ، وَحَصْبَائِهَا الْمُحْرِقَةِ ؛ فَتَخَاذَلَتْ نُفُوسُهُمْ ، وَأَظْلَمَ الْفَضَاءُ أَمَامَ أَعْيُنِهِمْ ، وَتَمَلَّكَهُمُ الْيَأْسُ ، حَتَّى لَقَدْ أَشَارَ أَحَدُهُمْ عَلَى رِفَاقِهِ بِقَوْلِهِ : احْفِرُوا قُبُورَكُمْ يَارِفَاقُ ، وَأَنْتُمْ لَاتَزَالُ فِيكُمْ فَضْلَةٌ مِنَ الْقُوَّةِ ، حَتَّى يَكُونَ دَفْنُ مَنْ يَمُوتُ مِنْكُمْ أَوَّلًا سَهْلًا عَلَى رِفَاقِهِ . وَلٰكِنَّ عَبْدَ الْمُطَّلِبِ قَالَ لِأَصْحَابِهِ :

وَاللهِ إِنَّ إِلْقَاءَنَا أَنْفُسَنَا بِأَيْدِينَا هٰكَذَا لِلْمَوْتِ لَهُوَ عَجْزٌ مِنَّا ، فَهَيَّا نَضْرِبْ فِي الْأَرْضِ نَبْتَغِي لِأَنْفُسِنَا مَخْرَجاً مِمَّا نَحْنُ فِيهِ .

ثُمَّ هَمَّ إِلَى رَاحِلَتِهِ الَّتِي أَنَاخَهَا بِجَانِبِهِ ، فَرَكِبَهَا ، فَانْبَعَثَتْ قَائِمَةً بِهِ ، فَإِذَا الْمَاءُ الْعَذْبُ الرَّقْرَاقُ الَّذِي تَلَهَّفَتْ إِلَيْهِ نُفُوسُ

الرِّفَاقِ ، وَكَادَتْ أَنْ تُغَادِرَ أَرْوَاحُهُمْ أَجْسَادَهُمْ مِنْ أَجْلِهِ ، يَنْبُعُ مِنْ تَحْتِ خُفِّ النَّاقَةِ ، وَيَنْسَابُ جَذَّابًا أَخَّاذًا فَوْقَ الرِّمَالِ الصَّفْرَاءِ ! ! وَهَلَّلَ رِجَالُ قُرَيْشٍ وَانْتَشَوْا عِنْدَ رُؤْيَتِهِمُ الْمِيَاهَ تَنْسَابُ مِنْ تَحْتِ خُفِّ رَاحِلَةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ، وانْكَبُّوا عَلَى وُجُوهِهِمْ فَوْقَ الْمَاءِ الْبَارِدِ الْعَذْبِ يَرْتَشِفُونَهُ بِأَفْوَاهِهِمْ ، وَيَغْتَرِفُونَهُ بِأَيْدِيهِمْ ! فَلَمَّا ارْتَوَوْا جَمِيعاً نَظَرُوا إِلَى عَبْدِ الْمُطَّلِبِ نَظْرَةَ إِجْلَالٍ وَإِكْبَارٍ ، وقَالُوا لَهُ :

قَدْ — وَاللهِ — قَضَى اللهُ لَكَ عَلَيْنَا يَا عَبْدَ الْمُطَّلِبِ ، وَاللهِ لاَ نُخَاصِمُكَ فِي زَمْزَمَ أَبَدًا ؛ إِنَّ الَّذِي سَقَاكَ هٰذَا الْمَاءَ بِهٰذِهِ الْفَلَاةِ لَهُوَ الَّذِي سَقَاكَ زَمْزَمَ ، فَارْجِعْ إِلَى سِقَايَتِكَ رَاشِدًا .

وَعَادَ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ ، وَعَادَ مَعَهُ وَفْدُ قُرَيْشٍ إِلَى مَكَّةَ مُتَصَالِحِينَ مُتَصَافِينَ ، بَعْدَ أَنْ تَزَوَّدُوا لِطَرِيقِ عَوْدَتِهِمْ مِنَ الْمَاءِ الَّذِي أَظْهَرَهُ اللهُ لِعَبْدِ الْمُطَّلِبِ بِمَا يَكْفِيهِمْ وَيَسُدُّ حَاجَتَهُمْ

٥

وَجَدَّ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ فِى حَفْرِ زَمْزَمَ ، وَجَهدَ هُوَ وَابْنُهُ الْحَارِثُ فِى رَفْعِ الْأَحْجَارِ والرِّمَالِ الَّتى تَطْمُرُهَا، وَعَلَى عُمْقٍ غَيْرِ قَلِيلٍ مِنْ فُوَّهَتِهَا رَأَى عَبْدُ الْمُطَّلِبِ بَيْنَ الرِّمَالِ ذَهَباً يَلْمَعُ !

يَا لله .. ! ! هٰذَا مَا صَاحَ بِهِ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ مُهَلِّلاً فَرِحاً .

وَأَسْرَعَ رِجَالُ قُرَيْشٍ يَلْتَفُّونَ حَوْلَ زَمْزَمَ يَنْظُرُونَ إِلَى مَا هَلَّلَ لِأَجْلِهِ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ، فَرَأَوْهُ يَسْتَخْرِجُ مِنْ بَيْنِ الرِّمَالِ أَسْيَافاً وَأَدْرَاعاً بَيْنَهَا غَزَالَتَانِ لَامِعَتَانِ مِنْ ذَهَبٍ ! !

وَصَاحَ رِجَالُ قُرَيْشٍ بِدَوْرِهِمْ مُهَلِّلِينَ فَرِحِينَ . وقَالَ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ لِرِجَالِ قُرَيْشٍ :

مَاذَا تَرَوْنَ يَا رِجَالُ فِى أَمْرِ هٰذِهِ الْأَشْيَاءِ ؟

قَالُوا : هٰذِهِ هِىَ هَدَايَا الْكَعْبَةِ الَّتى قِيلَ إِنَّ مُضَاضًا الْجُرْهُمِىَّ قَدْ طَمَرَهَا ، وَنَرَى أَنْ تُشْرِكَنَا فِيهَا مَعَكَ .

قَالَ : نَضْرِبُ عَلَيْهَا الْقِدَاحَ ؛ فَلِي قدَحَانِ ، وَلِلْكَعْبَةِ قَدَحَانِ ، ولَكُمْ قَدَحَانِ. والْقِدَاحُ أَسْهُمٌ كَانُوا يَقْتَرِعُونَ بِهَا عِنْدَ الصَّنَمِ هُبَلَ الَّذِى أَقَامُوهُ فِى جَوْفِ الْكَعْبَةِ .

وَلَمَّا ضَرَبَ صَاحِبُ الْقِدَاحِ بِالْقِدَاحِ ، خَرَجَ قَدَحَا الْكَعْبَةِ عَلَى الْغَزَالَتَيْنِ ، وخَرَجَ قَدَحَا عَبْدِ الْمُطَّلِبِ عَلَى الْأَسْيَافِ والْأَدْرَاعِ ، أَمَّا قَدَحَا قُرَيْشٍ فَتَخَلَّفَا وَلَمْ يَخْرُجَا عَلَى شَىْءٍ .

فَأَخَذَ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ الْأَسْيَافَ فَضَرَبَهَا بَاباً لِلْكَعْبَةِ ، وَضَرَبَ فِى الْبَابِ الْغَزَالَتَيْنِ الذَّهَبِيَّتَيْنِ حِلْيَةً لَهُ .

وَهٰكَذَا عَادَتْ إِلَى الْكَعْبَةِ الْهَدَايَا الَّتِى كَانَتْ بِجَوْفِهَا ، وَالَّتِى طَمَرَهَا بِدَاخِلِ زَمْزَمَ مُضَاضٌ الْجُرْهُمِىُّ قَبْلَ ذٰلِكَ التَّارِيخِ بِنَحْوِ ثَلَاثِمَائَةِ سَنَةٍ .

وَأَتَمَّ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ حَفْرَ زَمْزَمَ حَتَّى ظَهَرَ لَهُ مَاؤُهَا الْعَذْبُ النَّمِيرُ ، فَكَانَ لِفَرْحَةِ ظُهُورِهِ مِنَ الْأَثَرِ فِى نَفْسِهِ مَا أَنْسَاهُ شِدَّةَ مَا لَاقَى فِى سَبِيلِ الْحَفْرِ عَنْهُ مِنْ كَرْبٍ وعَنَاءٍ . وَإِنْ كَانَ

قَدْ نَذَرَ لِلَّهِ بِسَبَبِ مَا آذَتْهُ بِهِ قُرَيْشٌ أَنْ قَالَ :

يَا رَبِّ ؛ لَئِنْ رَزَقْتَنِي أَوْلَادًا عَشَرَةً ، وَبَلَغُوا أَشُدَّهُمْ مَعِي، فَشَدُّوا أَزْرِي _ لَأَنْحَرَنَّ أَحَدَهُمْ لَكَ عِنْدَ الْكَعْبَةِ ؟

وَبِفَضْلِ مَاءِ زَمْزَمَ الَّذِي أَظْهَرَهُ اللَّهُ لِعَبْدِ الْمُطَّلِبِ يُسِّرَتْ لَهُ مُهِمَّةُ مَنْصِبِ السِّقَايَةِ ، وَسَهُلَ عَلَيْهِ إِعْدَادُ الْمَاءِ لِلْحُجَّاجِ ، وَمَلَأَ أَحْوَاضَ شُرْبِهِمْ وَاغْتِسَالِهِمْ دُونَ تَعَبٍ وَدُونَ مَشَقَّةٍ .

وَعَفَتْ شُهْرَةُ زَمْزَمَ عَلَى غَيْرِهَا مِنَ الْآبَارِ ، وَتَحَدَّثَ النَّاسُ عَنْ عَذْبِ مَائِهَا ، وَقَصُّوا الْقِصَصَ عَنْ فَضَائِلِهَا ، وَرَوَوْا الرِّوَايَاتِ الَّتِي تَدْخُلُ فِي مَصَافِّ الْأَسَاطِيرِ ، وَتَأْتِي فِي مَرْتَبَةِ الْمُعْجِزَاتِ .

وَلَمْ يَنَلْ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ شَرَفَ فَخْرِ حَفْرِ زَمْزَمَ وَحْدَهُ ، بَلْ كَانَ مَفْخَرَةً لِبَنِي عَبْدِ مَنَافٍ عَلَى قُرَيْشٍ ، ثُمَّ كَانَ مَفْخَرَةً لِقُرَيْشٍ عَلَى الْعَرَبِ ! !

وَظَلَّتْ زَمْزَمُ مِنْ ذَلِكَ الْحِينِ الَّذِي مَرَّتْ عَلَيْهِ سُنُونَ وَأَجْيَالٌ وَأَحْقَابٌ ، تَسْقِي حُجَّاجَ بَيْتِ اللَّهِ مَاءً عَذْبًا بَارِدًا

نميرًا ، يتسارع حجاج البيت إلى الشرب منه والاغتسال به ، ويتبارون في حمل ما يتيسر لهم حمله منه في قوارير وزجاجات يحملونها إلى ديارهم تبركًا ، ويقدمونها لأحبائهم هدية ثمينة قيمة ، وزاد اعتقاد بعض المسلمين في بركة زمزم ، فصاروا يبللون بمائها أقمشة جديدة ، يحفظونها بعد جفافها ، لتكون أكفانًا لهم بعد موتهم ، تصحبهم إلى قبورهم !

بل لقد زاد التطرف ببعض الناس الذين طغى حب زمزم على عقولهم ، وآمنوا بها — أن كانوا يلقون بأنفسهم فيها ، حتى ينالوا موتًا طيبًا مباركًا محببًا إلى نفوسهم ، مما دعا أولياء الأمور والقائمين على ولاية مكة إلى العمل على تلافي ذلك الأمر ، بأن وضعوا تحت سطح ماء البئر بقليل شبكة حديدية تحمل ما يلقى فوقها ، وتحول دون رسوبه في قعرها .

وشهدت زمزم على طول هذه الأجيال التي مرت بها غير تهافت الناس عليها ، وحبهم لمائها — صورًا مختلفة من عناية الكبراء والولاة بها ، ورعاية حكام مختلف الأقطار لها .

فَعُمِّقَتْ مِنْ أَسْفَلَ ، وبُنِيَتْ مِنْ أعْلَى ، فرُخِّمَتِ الأَرْضُ حَوْلَهَا ، وأُقِيمَ عَلَيْهَا سَقْفٌ ، وأُنْشِئَتْ عَلَى جوَانِبِهَا أَحْوَاضٌ للشُّرْبِ والوُضُوءِ والاغْتِسَالِ ، أَشرَفَ على إعْدَادِهَا و نَظَافَتِهَا وَمَلْئِهَا خَدَمٌ وَحُرَّاس .

وَإِلَى جَنُوبِي زَمْزَمَ كَانَ العَبَّاسُ بْنُ عَبْدِ المُطَّلِبِ قَدْ أَقَامَ حَوْضاً كَبِيراً لِلْوُضُوءِ يَسْتَمِدُّ مَاءَهُ مِنْ زَمْزَمَ ، فَرُخِّمَ هُوَ الآخَرُ وَسُقِّفَ ، وَأُعِدَّ المَاءُ الَّذِي يَأْتِيهِ مِنْ زَمْزَمَ بِطَرِيقَةٍ تَجْعَلُهُ يَخْرُجُ فَوْراً مِنْ دَاخِلِ الحَوْضِ ، فَيَبْدُو كَنَافُورَةٍ جَمِيلَةٍ سُمِّيَتْ بِسِقَايَةِ العَبَّاسِ .

وَمِنْ بَيْنِ الزَّخَارِفِ الَّتِي زُخْرِفَ بِهَا بَيْتُ زَمْزَمَ ، ومِنْ بَيْنِ نُقُوشِهَا المُذَهَّبَةِ ، يَقْرأُ المُشَاهِدُ لِزَمْزَمَ ، المُتَأَمِّلُ فِي تَارِيخِهَا ، البَاحِثُ عَنْ فَضَائِلِهَا ، كَلِمَاتٍ قَدْ كُتِبَتْ بَيْنَ زَخَارِفِهَا ، وحِكَمٍ قدْ نُقِشَتْ بَيْنَ نُقُوشِهَا ، تُبَيِّنُ لِلْمُتَأَمِّلِ بَعْضَ هٰذَا التَّارِيخِ ! وَتُظْهِرُ لِلْبَاحِثِ شَيْئاً مِنْ هٰذَا الفَضْلِ !

مجموعة القصص الدينية

تتضمن هذه المجموعة قصصاً شائقة ، فيها تنوير للقلب ، ودعوة إلى الحق ، وإيمان بالمبدأ ، واتصال بالله . جرت حوادثها مع رجال غلبت عليهم الروحانية ، وأعلنوا الحق غير مبالين أن يصيبهم ما يصيبهم ، ولو كان فيه تلف نفوسهم : فهي الشجاعة في إبداء الرأي ، ونصرة الحق ، والأخذ بيد المظلوم ، وهي ثورة على الفساد ، ومحاربة الطغيان ! ثم انتصار الحق والفضيلة والخلق الكريم .

ثمن النسخة ٣ قروش

دار المعارف

ملتزم التوزيع : مؤسسة المطبوعات الحديثة